غلواء

إلياس أبو شبكة

غلواء

غلواء

تأليف
إلياس أبو شبكة

هنـــداوي

غلواء

إلياس أبو شبكة

رقم إيداع ٤٨٧٧ / ٢٠١٤
تدمك: ٢ ٧١٨ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: محمد الطوبجي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2017 Hindawi Foundation for Education and Culture.
All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

العهد الأول	٩
العهد الثاني	٢٥
العهد الثالث	٣٩
العهد الرابع	٤٩

كتبت «غلواء» بين ١٩٢٦ و١٩٣٢ وليس فيها من حياة المؤلف في مطلع شبابه إلا شطر ضئيل، فهي في مجموعها من صنيع الخيال لا من صنيع الواقع.

وعبثًا يحاول القارئ، ولو طال الزمن ومهما يطل، أن يجد في «غلواء» مستندًا لظن أو موضوعًا لاجتهاد؛ فهي حياة جماعة لا حياة فرد، هي الحياة وليست حياةً، هي قصيدة لا تاريخ.

تشرين الثاني ١٩٤٥

العهد الأول

المريضة

١

مَا أَسْلَمَ القَلْبَ وَأَصْفَى السَّمَرَا
وَأَهْنَأَ الشِّتَاءَ في تِلْكَ القُرَى
وَأَطْوَلَ اللَّيْلَ بِهِ وَأَقْصَرَا!
تَجْرِي اللَّيَالِي عَذْبَةً كَالسَّاقِيَهْ
يُضَنُّ مِنْهَا بِاللَّيَالِي البَاقِيَهْ
كَأَنَّهَا بَقِيَّةٌ مِنْ عَافِيهْ
فِي لَيْلَةٍ لِطُولِهَا وَسْنَانَهْ
وَالأَرْضُ مِمَّا شَرِبَتْ نَشْوَانَهْ
عَادَ فَأَلْفَى أُمَّهُ سَهْرَانَهْ
فَقَالَ: «مَا عَوَّدَكِ اللَّيْلُ السَّهَرْ
لَمْ يَبْقَ إِلَّا سَاعَتَانِ لِلسَّحَرْ
... أَقْرَأُ فِي وَجْهِكِ، يَا أُم، خَبَرْ
غَلْوَاءُ؟ مَا حَلَّ بِهَا؟ ... شَقِيَّهْ!
أَمَا تَبَقَّى لِلرَّجَا بَقِيَّهْ؟
مِسْكِينَةٌ! وَيْلُ امِّهَا، صَبِيَّهْ!

وحَاوَلَ النَّوْمَ بِدُونِ جَدْوَى
كَأَنَّ فِي عَيْنَيْهِ قَلْبًا يَهْوَى
وَقَلْبُهُ كَانَ بَرِيئًا خِلْوا
وَانْتَقَلَ انْتِقَالَةً عَجِيبَهْ
مِنْ أَلَمِ الرُّوحِ إِلَى غَيْبُوبَهْ
كَشُعْلَةٍ فِي نَفْسِهِ مَشْبُوبَهْ
طَوْرًا يَرَى غَلْوَاءَ فِي صِبَاهَا
تَشِعُّ فِي وِجْدَانِهِ عَيْنَاهَا
مَعْقُودَةَ الحُسْنِ عَلَى رَيَّاهَا
وَتَارَةً فِي كَفَنٍ مُلْتَفَّهْ
يُسَرِّحُ المَوْتُ عَلَيْهَا كَفَّهْ
بِحَسْرَةٍ عَاطِفَةٍ وَلَهْفَهْ
بارِزَةً مِنْ فَمِهَا الأَسْنَانُ
مُزْرَقَّةً كَأَنَّهَا دِيدَانُ
وَاللَّثَّةُ الحَمْرَاءُ زَعْفَرَانُ
ذَاتَ شُحُوبٍ رَاعِبٍ رَهِيب
كَأَنَّهُ لَوْنٌ مِنَ الذُّنُوبِ
أَوْ نَفَسٌ مِنْ صَدْرِهَا المَكْرُوبِ
وَكَانَتِ الظُّلْمَةُ فِي أَشْجَانِ
وَالرِّيحُ كَالمِبْرَدِ فِي الأَبْدَانِ
وَاللَّيْلُ فِيهَا كَضَمِيرِ الجَانِي
وَلَمْ يَكَدْ مِنْ حُلْمِهِ يُفِيقُ
حَتَّى اعْتَرَاهُ خَدَرٌ عَمِيقُ
وَجُنَّ فِي دِمَاغِهِ العُرُوقُ
فَأَبْصَرَ المَرِيضَةَ المُحْتَضَرَهْ
مَسْدُولَةَ الذَّوَائِبِ المُبَعْثَرَهْ
جِنِّيَّةٌ هَائِمَةٌ فِي مَقْبَرَهْ

* * *

وَحَـلَّ فِـي أَهْـدَابِـهِ تَـابُـوتُ
فِـي قَـلْـبِـهِ صَـبِـيَّـةٌ تَـمُـوتُ
تَمُوتُ فِي غَيْبُوبَةٍ وَسَـكْرَهْ
لَهَا مِنْ العُمْرِ ثَمَانِيَ عَشْرَهْ
وَعِـنْـدَمَـا أَفَـاقَ مِـنْ رُؤْيَـاهُ
وَحَدَّقَتْ إِلَى الدُّجَى عَيْنَاهُ
رَأَى نِيَامًا كُلَّ مَنْ فِي الدَّارِ
إِلَّا عُـيُـونَ الـهِـرِّ ذَاتَ الـنَّـارِ

٢

أَمِـنَ الـعَـدْلِ خَـالِـقَ الأَرْوَاحِ
أَنْ يَغِيبَ الجَمَالُ قَبْلَ الصَّبَاحِ؟
أَمِنَ العَدْلِ أَنْ يُرَى القَلْبُ عَطْشَا
نَ، وَخَمْرُ الـقُـلُـوبِ فِـي الأَقْدَاحِ؟
أَمِـنَ الـعَـدْلِ أَنْ تَـجُـولَ عُـيُـونٌ
فِي ظَلَامٍ وَالزَّيْتُ فِي المِصْبَاحِ؟
إِنْ تَكُنْ تَحْرِمُ الطُّيُورَ سَمَاهَا
فَلِمَاذَا خَلَقْتَ رِيشَ الجَنَاحِ؟

* * *

وَتَنَاءَتْ عَيْنَاهُ فِي الشَّفَقِ الأَخْضَرِ
فَـانْـحَـطَّـتَـا عَـلَـى فَـلَّاحِ
يَحْرُثُ الأَرْضَ هَادِئًا مُطْمَئِنًّا
فَـيَـشُـقُّ الأَتْـلَامَ كَـالـجَـرَّاحِ

* * *

قَالَ: طُوبَى لَهُ وَطُوبَى لِنَفْسِهْ
مَا أَلَذَّ الصَّفَاءَ فِي مَاءِ كَأْسِهْ!
مَا أَعَزَّ الأَغْشَابَ حَوْلَ سَوَاقِيهِ
وَأَغْنَاهُ فِي قَنَاعَةِ بُؤسِهْ
لَا يَرَى غَيْرَ حَقْلِهِ إِنْ أَطَلَّ الفَجْرُ
أَوْ أَقْبَلَ المَسَا غَيْرَ أُنْسِهْ
جَاهِلٌ يَجْهَلُ القِرَاءَةَ فِي الأَسْفَارِ
لَكِنَّهُ حَكِيمٌ بِفَأْسِهْ
غَدُهُ مِثْلُ يَوْمِهِ، لَيْسَ يَغْشَاهُ شَقَاءٌ،
وَيَوْمُهُ مِثْلُ أَمْسِهْ

* * *

لَيْتَ لِي قَلْبَهُ الخَلِي
لَيْتَ فِي الرُّوحِ لِي تُقَاهْ
لَيْتَ فِي مُقْلَتَيَّ لِي
مُقْلَتَيْهِ ... وَا حَسْرَتَاهْ!
فَأَرَى الصُّبْحَ يَنْجَلِي
عَنْ شُعَاعٍ مِنْ الحُلِي
ذَهَبِيٍّ مُكَلَّل
بِلُجَيْنٍ مِنَ المِيَاهْ
وَأَرَى اللَّهَ كُلَّمَا
أُرْسِلُ الطَرْفَ فِي السَّمَا
إِنَّ فِيهَا لِمَنْ سَمَا
بِالتُّقَى صُورَةَ الإِلَهْ

القصة

١

غَلْوَاءُ، مَا أَحْلَى اسْمَهَا المِعْطَارَا،
صَبِيَّةٌ تَغْبِطُهَا العَذَارَى
لَا يَسْتَطِيعُ شَاعِرٌ أَنْ يُبْدِعَا
قَصِيدَةً أَجْمَلَ مِنْهَا مَطْلَعا
تَصَوَّرِ الأَزْهَارَ فِي نَوَّارِ
تُنْعِشُهَا ارْتِعَاشَةُ الأَنْوَارِ
تَصَوَّرِ النَّسِيمَ فِي الصَّبَاحِ
يَهِزُّ سَاقَ الفُلِّ وَالأَقَاحِ
تَصَوَّرِ السَّمَاءَ فِي رُوَائِهَا
كَأَنَّهَا الأَحْلَامُ فِي صَفَائِهَا
تَصَوَّرِ الأَعْشَابَ فِي الجِبَالِ
تَحْلُمُ فِي مَهْدٍ مِنَ الظِّلَالِ
تَصَوَّرِ الرَّابِيَةَ الجَمِيلَهْ
لَوَّنَهَا ظِلٌّ مِنَ الخَمِيلَهْ
وَكُومَ الثَّلْجِ عَلَى الرَّوَابِي
تَطْفُو عَلَيْهَا صُفْرَةُ الغِيَابِ
وَانْظُرْ أَخِيرًا نَظْرَةً سَرِيعَهْ
مُخْتَلَفَ الجَمَالِ فِي الطَّبِيعَهْ
تَعْرِفْ إِذنْ مَعْرِفَةً عَلْيَاءَ
كَيْفَ السَّمَاءُ أَبْدَعَتْ غَلْوَاءَ
وَكَانَ فِي صُوَرٍ لَهَا قَرِيبَهْ
أُعْطِيَتِ اسْمَ الوَرْدَةِ الحَبِيبَهْ
جَمَالُهَا يَحْمِلُ لِلْجُنُونِ
وَمِيضَةَ الشَّهْوَةِ فِي العُيُونِ

تَشْعُرُ، مِنْ جَسَدِهَا المُشْتَعِلِ،
فِـي كُـلِّ عِـرْقٍ بِـدِمَـاءِ رَجُـلِ
تَـصـوَّرِ الـبُـرْكَـانَ فِـي ثَـوْرَتِـهِ
تَنْقَذِفُ النِّيرَانُ مِنْ فُوهَتِهِ
كَالمَرْأَةِ البَغِيِّ فِي مُقْلَتِهَا
عُنْصُرُ نَارٍ قُدَّ مِنْ شَهْوَتِهَا
تَـصَـوَّرِ المَـوْتَ بِـنَـابٍ أَفْـعَـى
مُـرِيـبَـةٍ بَـيْـنَ زُهُـورٍ تَـسْـعَـى
تَـظُـنُّـهَـا خِـلَالَ وَهْـجِ الـنُّـورِ
سَـاقِـيَـةً تَـنْـسَـابُ فِـي الـزُّهُـورِ
تَصَوَّرِ المَصْدُورَ فِي خَدَّيْهِ
تَـوَرُّدٌ يَـطْـفُـو الـصِّـبَـا عَـلَـيْـهِ
تَـخَـالُـهُ الـرَّبِـيـعَ عِـنْـدَ فَـجْـرِهْ
إِنْ أَنْتَ لَمْ تَسْمَعْ سُعَالَ صَدْرِهْ
وَرَجُـلًا غَـصَّ بِـبَـلْـعِ رِيـقِـهْ
فَاسْتَنْجَدَ القَطْرَةَ فِي إِبْرِيقِهْ
وَلَـوْ دَرَى أَنَّ هُـنَـاكَ عَـقْـرَبْ
لآثَرَ الغَصَّ عَلَى أَنْ يَشْرَبْ
وَانْظُرْ أَخِيرًا نَظْرَةً سَرِيعَهْ
مُخْتَلفَ الشُّرُورِ فِي الطَّبِيعَهْ
يَبدُ لَكَ المَقتُ إِذن فَتَعْلَمْ
كَيْفَ أَرَادَتْ «وَرْدَةً» جَهَنَّمْ

* * *

وَرَغِـبَـتْ غَـلْـوَاءُ أَنْ تَـزُورَا
أُمَّ الـجُـدُودِ الأَقْـدَمِـيـنَ صُـورا
فَـسَـافَـرَتْ يَـخْـفِـرُهَـا الـفَـتَـاءُ
وَحُـسْـنُـهُ — تَـبَـارَكَـتْ غَـلْـوَاءُ

... ...

... ...

فِينِيقْيَا وَمَجْدُهَا المُشَيَّدُ
وَمُلْكُهَا المُعَظَّمُ المُؤَيَّدُ
أَمِيرَةُ الفُنُونِ وَالتِّجَارَهْ
وَمَنْشَأُ العُلُومِ وَالحَضَارَهْ
سُلْطَانَةُ البِحَارِ وَالأَسْفَارِ
مَلِيكَةُ البِرْفِيرِ وَالنُّضَارِ
لُؤْلُؤَةُ العُرُوشِ وَالتِّيجَانِ
وَمَطْمَحُ اليُونَانِ وَالرُّومَانِ
أَمْسَتْ بَقَايَا وَطَنٍ مُدَمَّر
مِنْ بَعْدِ عِزٍّ شَامِخٍ مُنَوَّر
قَائِمَةً كَالطَّلَلِ المَهْجُور
عَلَى مِيَاهٍ شَاطِئٍ فِي صُور!

٢

عَلَى ذُرْوَةٍ بَيْنَ أَطْلَالِ صُورْ
يُحِيطُ بِهَا شَجَرٌ وَصُخُورْ
يَقُومُ بِنَاءٌ كَعُشِّ النُّسُورْ
بِنَاءٌ يَرَى العَابِرُونَ عَلَيْهْ
نَبَاتًا تَرَامَى عَلَى جَانِبَيْهْ
فَغَطَّى بِعَوْسَجِهِ سُدْفَتَيْهْ
كَرَمْسٍ قَدِيمٍ لِمَيْنٍ وَزُورْ
تَكَلَّلَ بِالشَّوْكِ لا بِالزُّهُورْ
طَلَاهُ الظَّلَامُ بِلَوْنٍ دُجَاهْ
لِكَثْرَةِ مَا لَامَسَتْهُ خُطَاهْ

وَمَرَّ عَلَيْهِ الضِّيَا فَطَلَاهْ
كَأَنِّي بِهِ بُرْجُ جِنٍّ وَحُورْ
تَرَدَّدَ بَيْنَ ظَلَامٍ وَنُورْ
إِذَا النُّورُ لَوَّنَهُ فِي السَّحَرْ
وَمَدَّ عَلَيْهِ ظِلَالَ الحَوَرْ
تَرَاءَى كَطَيْفٍ خِلَالَ الشَّجَرْ
أَتَى مِنْ دَيَامِيسِهِ لِيَزُورْ
بَقَايَا ذَرَارِيِّ تِلْكَ البُدُورْ
وَحِينَ يَسِيلُ اصْفِرَارُ المَغِيبْ
عَلَى جَانِبَيْهِ بِشَكْلٍ كَئِيبْ
يَبِينُ كَهَيْكَلِ عَظْمٍ مُرِيبْ
أَبَى أَنْ تُوَسِّدَهُ فِي القُبُورْ
غَدَاةَ تَمَرَّدَ، أَيْدِي الدُّهُورْ،
بِنَاءٌ تُزَنِّرُ أَسْوَارَهُ
خَرَائِبُ تَعْرِفُ أَسْرَارَهُ
فَقَدْ عَاشَتِ الدَّهْرَ سُمَّارَهُ
فَأَصْغِ لِنَسْأَلَ عَنْهُ الصُّخُورْ
أَلِلْحُبِّ شُيِّدَ أَمْ لِلشُّرُورْ
أَيَا سَائِلَ الصَّخْرِ عَنْ جَارِهِ
دَعِ الصَّخْرَ يَنْطِقْ بِأَخْبَارِهِ
فَلَيْسَ ضَنِينًا بِأَسْرَارِهِ
بَنَاهُ الجَلَالُ وَشَيَّدَ مَجْدَهْ
وَقَدْ كَانَ عَهْدُ الجَبَابِرِ عَهْدَهْ
وَكَانَ الزَّمَانُ المُسَوَّدُ عَبْدَهْ
تُنَارُ اللَّيَالِي بِأَنْوَارِهِ
وَتُزْهَى بِأَعْيَادِ سُمَّارِهِ

* * *

بَنَتْهُ يَدُ الفَاتِحِينَ الأُلَى
أَهَابُوا بِفِينِيقِيَا لِلْعُلَى
فَأَمْسَى بِهِمْ شَعْبُهَا الأَوَّلَا
يَقُودُ الزَّمَانَ بِأَبْصَارِهِ
وَيُسْجِدُهُ تَحْتَ أَسْوَارِهِ
وَكَانَتْ أَمِيرَتُهُ يَوْمَ كَانْ
أَمِيرَ القُصُورِ بِذَاكَ الزَّمَانْ
كَحُورِيَّةٍ مِنْ عَذَارَى الجِنَانْ
مُعَطَّرَةٍ مِثْلَ أَشْجَارِهِ
بِدُهْنِ اللُّبَانِ وَأَسْحَارِهِ
وَهَبَّتْ عَلَى القَصْرِ رِيحٌ سَمُومْ
ذَرَتْ مِنْهُ أَنْوَارَ تِلْكَ النُّجُومْ
كَمَا ذَرَتِ النَّارُ شَعْبَ سَدُومْ
وَلَمْ يَبْقَ مِنْ مَجْدِ آثَارِهِ
سِوَى غُرفَاتٍ لِتَذْكَارِهِ
تَرَى البُومَ يَخْلُفُ أَرْبَابَهَا
وَيَقْتَحِمُ النَّتْنُ أَبْوَابَهَا
وَيَفْتَرِشُ السُّوسُ أَخْشَابَهَا
كَشَعْبٍ تَخَلَّى لأَشْرَارِهِ
فَقَامَ الدَّمَارُ لإِنْذَارِهِ
لَقَدْ سَلَّطَتْ فُوَّهَاتُ الجَحِيمْ
عَلَى صُورَ نَارًا وَسُخْطًا عَظِيمْ
كَنَارِ يَهُوذَا وَأُورشَلِيمْ
وَأَبْقَى الزَّمَانُ بِأَسْفَارِهِ
مِنَ المَجْدِ ذِكْرَى لِزُوَّارِهِ
تَأَمَّلْ، تَأَمَّلْ بِرُوحِكَ زُهْدَهْ
وَكَيْفَ تُبِيدُ صُرُوفُ اللَّيَالِي

أَمِيرَ القُصُورِ وَتَتْرُكُ بَعْدَهْ
بَقَايَا مِنَ الغُرفَاتِ خَوَالِي
خَوَاليَ ... لَوْلَا «الحَبِيبَةُ وَرْدَهْ»!

٣

فِي لَيلَةٍ تَنَبَّهَتْ غَلْوَاءُ
وَالبَدْرُ فِي مَخْدَعِهَا إِنَاءُ
تَسِيلُ مِنْهُ فِضَّةٌ بَيْضَاءُ
فَأَرْهَفَتْ مِسْمَعَهَا المَطْرُوقَا
فَسَمِعَتْ تَنَهُّدًا عَمِيقَا
يَصْدُرُ عَمَّا يَنْهَشُ العُرُوقَا
وَأَرْسَلَتْ نَظْرَةَ بَرٍّ طَاهِر
فَهَالَهَا فِي المَخْدَعِ المُجَاوِرِ
فَاجِرَةٌ عَلَى ذِرَاعِ فَاجِرا!
... ...
... ...
... ...
مَا أَنْتِ يَا وَرْدَةُ تِلْكَ الوَرْدَهْ
بَلْ أَنْتِ مِنْ أَشْوَاكِهَا مُسْوَدَّهْ
أَمِيرَةَ الشَّهْوَةِ أَنْتِ عَبْدَهْ!
... ...
... ...
... ...
أَيُّ خَيَالٍ حَلَّ فِي غَلْوَاءَ
أَيُّ رُؤًى مُحْرِقَةٍ سَوْدَاءَ

تَعَلَّقَتْ أَجْفَانَهَا العَذْرَاءَ؟
فَهَرَبَتْ إِلَى ضِفَافِ البَحْرِ
وَطَوَّفَتْ بَيْنَ بَقَايَا الدَّهْرِ
مِنْ خِرْبَةٍ لِرُجْمَةٍ لِقَبْرِ
وَكَانَتِ المِيَاهُ وَالصُّخُورُ
قَائِمَةً مَا بَيْنَهَا القُبُورُ
حَتَّى السُّكُونُ حَوْلَهَا مَسْحُورُ
وَالمَوْجُ بَعْدَ المَوْجِ كَيْفَ ذَابَا
مُسْتَسْلِمًا عَلَى الحَصَى مُنْسَابا
يُقَبِّلُ القُبُورَ وَالتُّرَابَا
كَأَنَّهُ جَمْعٌ مِنَ العَذَارَى
أَوْ ذِكْرَيَاتُ عَاشِقٍ تَوَارَى
تَهْمِسُ فِي أُذُنِ الرَّدَى أَسْرَارا
وللمِيَاهِ زَبَدٌ كَثِيفُ
يُنْسَجُ مِنْهُ كَفَنٌ خَفِيفُ
عَلَيْهِ مِنْ نُورِ الدُّجَى حُرُوفُ
وَسَمِعَتْ غَلْوَاءُ طَيْرَ البُومِ
يَنْعَقُ كَالشُّؤْمِ عَلَى الرُّسُومِ
مُدَنِّسًا نَقَاوَةَ النَّسِيمِ
وَاسْتَيْقَظَتْ فِي نَفْسِهَا المَحْمُومَهْ
مِنْ «وَرْدَةَ الحَبِيبَةِ» الأَثِيمَهْ
صَارِخَةً، أَخْيِلَةُ الجَرِيمَهْ
وَدَبَّ فِي أَعْضَائِهَا النَّحِيفَهْ
قَفْقَفَةٌ وَرِجْفَةٌ عَنِيفَهْ
حُمَّى سَرَتْ فِي جِسْمِهَا خَفِيفَهْ
وَاسْتَفْحَلَتْ كَالشَّرِّ حِينَ يَبْدَأ
فَهْوَ صَغِيرٌ إِنَّمَا لَا يَفْتَأ

حَتَّى يَصِيرَ نَقْمَةً لَا تَبْرَأ
... ...
... ...
... ...
وَمَـرَّتِ الأَيَّـامُ وَالـلَّـيَـالِـي
سَـوْدَاءَ بِـالـفِـتْـنَـةِ وَالـجَـمَـالِ
فَـأَصْـبَـحَـتْ غَـلْـوَاءُ كَـالـخَـيَـالِ

* * *

وَبَـرَزَتْ عِـظَـامُـهَـا فِـي الـجِـسْـمِ
مُـصَـطَـفَّـةً عَـظْـمًـا إِزَاءَ عَـظْـمِ
كَـأَنَّـهَـا أَقْـلَامُ الاعْـتِـلَالِ
تَـكْـتُـبُ فِـي صَـحِـيـفَـةِ الآجَـالِ
وَسَـالَ فِـي وَجْـنَـتِـهَـا الـذُّبُـولُ
كَـنَـجْـمَـةٍ هَـمَّ بِـهَـا الأُفُـولُ
وَامْـتَـقَـعَ الـجَـبِـيـنُ بِـاصْـفِـرَارِ
كَـأَنَّـهُ أَوَاخِـرُ الـنَّـهَـارِ
فِـي لَـيْـلَـةٍ شَـدِيـدَةِ الـغُـسُـوقِ
تَـذَكَّـرَتْ حَـيَـاتَـهَـا فِـي «الـزُّوقِ»
وَذَكَـرَتْ مَـوَاكِـبَ الـضَّـبَـابِ
تَـمْـتَـدُّ كَـالـحُـلْـمِ عَـلَـى الـهِـضَـابِ
وَالـشَّـجَـرَ الأَخْـضَـرَ وَالـسَّـنَـابِـلَا
تَـبْـسُـطُ لِـلـطَّـبِـيـعَـةِ الأَنَـامِـلَا
وَذَكَـرَتْ أَخْـيِـلَـةَ الـمَـسَـاءِ
وَرَنَّـةَ الأَجْـرَاسِ فِـي الـهَـوَاءِ
وَدَوْحَـةَ الـكَـنِـيـسَـةِ الـحَـقِـيـرَهْ
وَبَـابَـهَـا الـصَّـغِـيـرَ وَالـفَـقِـيـرَهْ
وَصُـفْـرَةَ الـشَّـمْـسِ عَـلَـى الـجِـبَـالِ

وَلَعِبَ الأَطْفَالِ فِي الظِّلَالِ
وَاحْتَشَدَتْ أَخْيِلَةُ التِّذْكَارِ
تَطُوفُ أَسْرَابًا عَلَى الجِدَارِ
وَجَحَظَتْ فِي صَدْرِهَا الآلَامُ
كَجَفْنِهَا المَحْمُومِ لا تَنَامُ
وَحَبَكَتْ فِي مُقْلَتَيْهَا الحُمَّى
بِقَلْبِهَا العَفِيفِ ذَاكَ الإِثْمَا
وَانْتَقَلَ الإِثْمُ بِهَا انْتِقَالَهْ
أَجْرَتْ عَلَى خَيَالِهَا خَيَالَهْ
فَعَظُمَ الوَهْمُ، وَفِي الأَوْهَامِ
أَفْتَكُ بِالعَقْلِ مِنْ السِّرْسَامِ
وَقَامَ فِي أَحْلَامِهَا المُعَذَّبَهْ
رُؤْيَا كَأَنَّمَا هيَ المُرْتَكِبَهْ

الرُّؤيا

عَيْنُ مَنْ هَذِهِ الَّتِي لَا تَنَامُ؟
هِيَ عَيْنٌ ضِيَاؤُهَا الآثَامُ!
... ...
... ...
آلَمَتْهُ ذِكْرَى، فَتَاهَ وَفِي عَيْنَيْهِ
مِنْ أَمْسِهِ الأَثِيمِ حُطَامُ
وَعَلَى الشَّاطِئِ الكَئِيبِ قَتَامٌ
وَعَلَى صُورَ وَحْشَةٌ وَقَتَامُ
حَاوَلَ النَّوْمَ غَيْرَ أَنَّ طُيُوفا
جَاوَرَتْ عَيْنَهُ وَفِيهَا انْتِقَامُ

فَـنَـبَـا عَـنْ فِـرَاشِـهِ كَـأَثِـيـمٍ
أَيْـقَـظَـتْـهُ مِـنْ نَـوْمِـهِ الأَحْـلَامُ
إِنَّ عَـيْـنَ الأَثِـيـمِ جُـرْحٌ عَـمِـيـقٌ
قَـذِرُ الـجَـانِـبَـيْـنِ، لَا يَـلْـتَـامُ
... ...
... ...
وَتَـرَاءَتْ لَـهُ مَـجَـارِي الـوَادِي
كَـسَـرِيـرٍ يَـغِـيـمُ فِـي الأَبْـعَـادِ
فَـبَـكَـى ذَاكِـرًا عُـذُوبَـةَ مَـاضِـيـهِ
وَحُـبًّـا مَـضَـى مَـعَ الأَوْرَادِ
قَـالَ: «مَا حَلَّ بِاللَّيَالِي الخَوَالِي
كَـيْـفَ عَـاثَـتْ بِـهَـا يَـدُ الـجَـلَّادِ؟»
وَتَـلَـوَّى يَـصِـيـحُ: «وَيْـحَ ضَـمِـيـرِي
لَـيْـسَ هَـذَا الـجَـلَّادُ إِلَّا فُـؤَادِي!»
طَـرَحَـتْـكَ السَّـمَـاءُ عَـنْ قَـلْـبِ غَـلْـوَاءَ
كَـفَـرْعِ رِجْـسٍ مِـنَ الأَجْـسَـادِ
خَـائِـنَ الـحُـبِّ إِنَّ حُـبَّـكَ دُونٌ
فَـاحْـتَـجِـبْ فِـيـهِ عَـنْ عُـيُـونِ الـعِـبَـادِ
ثُـمَّ سَـادَتْ سَـكِـيـنَـةٌ وَتَـوَارَتْ
جُـزُرُ النُّـورِ فِـي الـفَـضَـاءِ الـرَّمَـادِي
لَـمْ يَـرَ الـفَـجْـرَ غَـاسِـلًا بِـضِـيَـاهُ
هَـضَـبَـاتِ الـمَـدِيـنَـةِ الـمَـرْدُومَـهْ
وَقِـبَـابَ الأَبْـرَاجِ يُـوقِـظُـهَـا الـنُّـورُ
كَـجِـنٍّ عَـلَـى قُـبُـورٍ قَـدِيـمَـهْ
فَـرَّ لَـمْ يَـلْـتَـفِـتْ كَـشَـعْـبٍ سَـدُومٍ
حِـيـنَـمَـا أَحْـرَقَ الإِلَـهُ سَـدُومَـهْ
... ...

... ...
مُزِجَ النُّورُ بِالدُّجَى حِينَ خَطَّ الفَجْرُ
فِـي صَـفْـحَـةِ الـسَّـمَـاءِ رُسُـومَـهْ
كَضَمِيرِ الأَثِيمِ يَشْمَلُهُ الصَّـفْـحُ
وَتَـبْـقَـى مِـنْ وَخْـزِهِ جُـرْثُـومَـهْ
فَـأَطَـلَّـتْ غَـلْـوَاءُ مِـنْ كُـوَّةِ الـخِـدْرِ
وَفِـي نَـفْـسِـهَـا شُـجُـونٌ عَـظِـيـمَـهْ
قَالَتْ: «الفَجْرُ شَاحِبٌ مِثْلُ وَجْهِي
وَأَلِـيـمٌ سَـاهٍ كَـنَـفْـسِـي الأَلِـيـمَـهْ
أَيُّـهَـا الـعُـمْـرُ، كَـمْ تَـعُـدُّ صَـبَـاحًـا
بَعْدُ لِي ... فِي أَيَّامِكَ المَحْطُومَهْ؟»

العهد الثاني

عذاب الضمير

١

تَرَامَى اللَّيْلُ كَالهَمِّ الثَّقِيلِ
يَجُرُّ ذُيُولَ مِعْطَفِهِ الطَّوِيلِ
وَيُبْرِزُ فِي مَشَارِفِهِ نُجُومًا
بِلَوْنٍ بُرتُقَالِيٍّ ضَئِيلِ
وَكَانَتْ زُوقُ مِيكَائِيلَ تُصْغِي
إِلَى هَمْسِ النَّيَاسِمِ فِي الحُقُولِ
فَتَبْسِمُ عَنْ كَوَاكِبِهَا النَّحِيلَهْ
وَتَحْلُمُ فِي جَوَاذِبِهَا الجَمِيلَهْ
بِعَهْدٍ — مَرَّ فِي الدُّنْيَا — جَمِيلِ
وَكَانَتْ قُبَّةُ الجَرَسِ المُقِيمَهْ
عَلَى عَمَدَيْ كَنِيسَتِهَا القَدِيمَهْ
تَقَطَّعُ فِي السَّمَاءِ وَقَدْ تَرَامَى
عَلَيْهَا النُّورُ أَفْلَاذًا سَقِيمَهْ
كَطَيْفٍ يَخْفِرُ الأَمْوَاتَ لَيْلًا
وَيَبْقَى سَاهِرًا سَهَرَ الأُمُومَهْ

وَكَانَ اللَّيْلُ مُنْفَطِرَ الشُّعُورِ
أَحَسَّ لَهِيبَ سُكَّانِ القُبُورِ
فَلَطَّفَ فِي مَعَابِرِهِ نَسِيمَهْ
وَكَانَت أَغْصُنُ الدَّوْحِ القَدِيمِ
يَهِزُّ رُءوسَهَا مَرُّ النَّسِيمِ
فِيُسْمَعُ فِي الدُّجَى مِنْهَا حَفِيفٌ
كَصَوْتِ الوَخْزِ فِي قَلْبٍ أَثِيمِ
وَفِي الأَكْوَاخِ أَقْبَاسٌ ضِعَافٌ
كَأَخْيِلَةِ الكَوَاكِبِ فِي الأَدِيمِ
تُصَعِّدُ مِنْ نَوَافِذِهَا الصَّغِيرَهْ
زَفِيرًا مِنْ أَشِعَّتِهَا الحَقِيرَهْ
كَأَنَّ بِزَيْتِهَا بَعْضَ الهُمُومِ
وَفِي الأَبْعَادِ كَانَ يُرَى الخَلِيجُ
تَمُجُّ مِيَاهُهُ نُورًا يَمُوجُ
كَلَوْحٍ أَسْوَدٍ مُلْقًى عَلَيْهِ
إِطَارٌ فِيهِ مِنْ ذَهَبٍ نَسِيجُ
تُدَبِّجُهُ مَصَابِيحٌ وَزُهْرٌ
لَهَا فِي المَاءِ مَنْظَرُهَا البَهِيجُ
وَأَضْوَاءُ النُّجُومِ عَلَى الشَّوَاطِئْ
إِذَا امْتَزَجَتْ بِأَضْوَاءِ المَرَافِئْ
يَكُونُ مِنْ الخَيَالِ بِهَا مَزِيجُ
دَعِ الأَبْعَادَ فِي اللَّيْلِ الجَمِيلِ
تَنَمْ سَكْرَى مَعَ النُّورِ الضَّئِيلِ
وَخَلِّ أَنَامِلَ النَّسَمَاتِ تَلْعَبْ
كَمَا شَاءَتْ بِأَوْرَاقِ الحُقُولِ
وَدَعْ قَطْرَ النَّدَى المَخْمُورَ يَسْقُطْ
عَلَى جَسَدِ الجَنَائِنِ وَالطُّلُولِ

وَهَيَّا بِي نَلِجْ قَصْرًا صَغِيرًا
تَرَى المِصْبَاحَ يَمْلَؤُهُ شُعُورا
رَسَا فِي الزُّوقِ مِنْ عَهْدٍ طَوِيلِ
فَتُبْصِر إِنْ وَلَجْتَ فَتًى كَئِيبًا
مِنَ الإِحْسَاسِ يُوشِكُ أَنْ يَذُوبَا
إِذَا أَمْعَنْتَ فِيهِ رَأَيْتَ جِسْمًا
يَفُورُ كَأَنَّ فِي دَمِهِ لَهِيبا
لَهُ قَلْبٌ يُرَى فِي كُلِّ قَلْبٍ
كَأَنَّ اللهَ ذَرَّ بِهِ قُلُوبَا
فَتًى كَالفَجْرِ أَلْوَانًا وَعُمْرًا
إِذَا أَبْصَرْتَهُ أَبْصَرْتَ فَجْرا
يَمُدُّ جَمَالُهُ ظِلًّا غَرِيبا
وَإِنْ أَصْغَيْتَ تَسْمَعُهُ يَقُولُ
لِوَالِدَةٍ أَلَمَّ بِهَا النُّحُولُ
لأُمٍّ فَارَقَتْ زَوْجًا حَبِيبًا
طَوَاهُ مِنْ الرَّدَى لَيْلٌ ثَقِيلُ:
«أُحِسُّ لَهَا اضْطِرَابًا فِي فُؤَادِي
وَدَمْعًا فِي حَنَايَاهُ يَجُولُ
وَمَا أَحْسَسْتُ أَمْسِ بِمِثْلِ هَذَا
فَأَمْسِي كَانَ، لا أَدْرِي لماذا،
جَمِيلًا، كُلُّ مَا فِيهِ جَمِيلُ!
أَجَلْ، يَا أُمِّ، صِرْتُ فَتًى شَقِيًّا
يَكَادُ اليَأْسُ يُطْفِئُ مُقْلَتَيَّا
فَأَيْنَ مَضَتْ لَيَالِيَّ الخَوَالِي
وَقَلْبٌ كَانَ فِي المَاضِي خَلِيًّا؟
أَرَى غَلْوَاءَ تُعْرِضُ عَنْ هُيَامِي
وَيَكْتُمُ قَلْبُهَا سِرًّا خَفِيًّا!»

وَتَسْمَعُهَا تَقُولُ لَهُ: «شَفِيقُ
بُنَيَّ، لَقَدْ أَضَلَّتْكَ الطَّرِيقُ
فَهَلْ نَبَّهْتَ قَلْبَكَ يَا بُنَيَّا؟
جَمِيلٌ، يَا وَحِيدِي، أَنْ تُحِبَّا
وَتَرْفَعَ لِلْهَوَى عَيْنًا وَقَلْبَا
وَتَسْمَعَ مِنْهُ أَنْغَامًا عِذَابًا
وَتَشْرَبَ مِنْ يَدَيْهِ المَاءَ عَذْبَا
لَقَدْ أَحْسَسْتُ قَبْلَكَ بِاضْطِرَابٍ
وَقَاسَيْتُ الهَوَى سَهْلًا وَصَعْبَا
وَلَكِنْ لَيْسَ يَنْدَمُ مَنْ تَأَنَّى
فَغَلْوَا، يَا ابْنِ، أَكْبَرُ مِنْكَ سِنًّا
إِذَا رَضِيَ الهَوَى فَالعُمْرُ يَأْبَى
تَأَنَّ فَسَوْفَ تَهْوَى مَنْ تُرِيدُ
وَتَهْوَاكَ العَذَارَى وَالوُرُودُ
فَمِثْلُكَ لَا يُجَاوِرُهُ قُنُوطٌ
وَمِلْءُ شَبَابِهِ عَقْلٌ رَشِيدُ
أَمَامَكَ، يَا ابْنِ، أَعْوَامٌ طِوَالٌ
وَمِنْ زَهَرِ الهَوَى عَدَدٌ عَدِيدُ
تَأَنَّ فَسَوْفَ تَقْطُفُ مِنْهُ زَهْرَهُ
تَكُونُ أَشَدَّ مِنْ غَلْوَاءَ نُضْرَهْ
يُبَارِكُ عِطْرَهَا العَهْدُ الجَدِيدُ»
فَيُطْلِقُ زَفْرَةَ التَّعِسِ الكَئِيبِ
وَيَغْرَقُ فِي دُجَى فِكْرٍ غَرِيبِ
وَيَذْهَبُ لَا يُجِيبُ ... وَفِي هَوَاهُ
لَظَى شَكٍّ أَشَدُّ مِنَ اللَّهِيبِ
وَكَيْفَ يُجِيبُ أُمًّا جَفَّ فِيهَا
عُصَارُ الحُبِّ فِي عَهْدِ الغُرُوبِ

أَيَا أُمِّي، اصْرِفِي ذِي الكَأْسَ عَنِّي
فَمَا فِي الحُبِّ شَأْنٌ لِلتَّأَنِّي
وَمَا لِلْعُمْرِ شَأْنٌ فِي القُلُوبِ
وَيَذْهَبُ لا يُجِيبُ ... وفِي هَوَاهُ
مِنَ الأَشْجَانِ مَا يُضْنِي قِوَاهُ
دَعِي، يَا أُمِّ، زَهْرَ النَّاسِ يَبْسِمُ
وَيَنْشَقْ فِي الوَرَى غَيْرِي شَذَاهُ
فَلِي فِي جَنَّةِ الأَشْوَاكِ زَهْرٌ
غَرِيبُ اللَّوْنِ لَا أَرْضَى سِوَاهُ!
... ...
... ...
... ...

٢

وَشُفِيَتْ غَلْوَاءُ مِنْ آلَامِهَا
لكِنَّهَا لَمْ تَشْفَ مِنْ أَوْهَامِهَا!
... ...
... ...
... ...
... ...
صُبَابَةُ اللَّيْلِ عَلَى الهِضَابِ
تَزْحَفُ زَحْفَ الهَارِبِ المُرْتَابِ
سَاحِبَةً وِشَاحَهَا الرَّمَادِي
عَنْ جَسَدِ الأَعْشَابِ وَالأَوْرَادِ
وَبَرَزَتْ جَوَاذِبُ السُّهُولِ

عَارِيَةً، بِلَحْظِهَا الخَجُولِ
وَانْتَعَشَتْ حُشَاشَةُ النَّسِيمِ
فَارْتَعَشَتْ في وَرَقِ الكُرُومِ
وَذَوَّبَتْ أَبْخِرَةُ الأَنْوَارِ
في الصُّبْحِ أَلْوَانًا عَلَى الأَطْيَارِ
بَرَاعِمُ الزَّهْرِ عَلَى الآكَامِ
تَبَسُّمُ الرَّبِيعِ لِلأَيَّامِ
وَنَغَمُ الجَدَاوِلِ الرَّقْرَاقَهْ
تَمْتَمَةُ الطَّبِيعَةِ المُشْتَاقَهْ
مَنْ يَا تُرَى يَكُونُ هَذَا الوَلَدُ؟
في مُقْلَتَيْهِ حُلُمٌ مُشَرَّدُ
كَأَنَّهُ في جِسْمِهِ الضَّعِيفِ
وُرَيْقَةٌ مِنْ وَرَقِ الخَرِيفِ
لَا حُبُّهُ يحلو وَلَا الرَّبِيعُ
فَقَلْبُهُ وَعَيْنُهُ دُمُوعُ!

٣

أَطَلَّتْ مِنَ الشُّبَّاكِ وَاللَّيْلُ نَيِّرُ
فَأَبْصَرَتِ الأَوْرَاقَ تُطْوَى وَتُنْشَرُ
يَغِيبُ ضِيَاءُ البَدْرِ عَنْهَا فَتَخْتَفِي
وَيَظْهَرُ مِنْ بَيْنِ السَّحَابِ فَتَظْهَرُ
فَقَالَتْ: «أَفِي البُسْتَانِ رِيحٌ لَطِيفَةٌ
تُبَرِّدُ في نَفْسِي لَظًى يَتَسَعَّرُ
أَفِيهِ خَيَالَاتٌ أَحَنُّ مِنَ الوَرَى
تُبَدِّدُ عَنِّي بَعْضَ مَا أَتَذَكَّرُ!»

وَخَفَّتْ إِلَيْهِ، وَارْتِعَاشَةُ جِسْمِهَا
يُلَوِّنُهَا البَدْرُ الحَيِيُّ المُصَوِّرُ
فَصَادَفَ جَفْنَاهَا الكَسِيرَانِ جَدْوَلًا
تَخَلَّلَ مَجْرَاهُ سُرَادِقُ أَخْضَرُ
وَقَدْ طَفَتِ الأَزْهَارُ فَوْقَ مِيَاهِهِ
كَحُلْمٍ نَقِيٍّ اللَّوْنِ يَأْتِي وَيَعْبُرُ
وَفِي حِينِ كَانَتْ تُرْسِلُ الفِكْرَ فِي الدُّجَى
وَفِي نَفْسِهَا مَاضٍ يَمُدُّ وَيَجْزُرُ
تَرَاءَتْ لِعَيْنَيْهَا طُيُوفٌ مُخِيفَةٌ
تَمُجُّ كَأَفْوَاهِ الأَفَاعِي وتصفِرُ!
وَعَادَتْ لِمَأْوَاهَا لَدُنْ عَادَ رُشْدُهَا
إِلَيْهَا، وَفِي الأَجْفَانِ يَأْسٌ وأَدْمُعُ
وَأَلْقَتْ بِأَيْدِي النَّوْمِ مَخْمُورَ رَأْسِهَا
فَجَاوَرَ عَيْنَيْهَا كَرًى مُتَقَطِّعُ
تَمُرُّ بِهِ الأَحْلَامُ خَاوِيَةَ الحَشَا
جِيَاعٌ تُزَجِّيهَا طَوَائِفُ جُوَّعُ
جِيَاعٌ يُؤَدِّيهَا الخَوَاءُ إِلَى الكَرَى
فَتَأْكُلُ أَفْلَاذَ العُيُونِ وَتَشْبَعُ
رُمُوزُ هَوًى يَسْتَرْفِدُ القَلْبَ بُلْغَةً
إِذَا جَاعَ، أَوْ يُهْوِي عَلَيْهِ فَيَبْضَعُ
وَلَمَّا طَوَى اللَّيْلُ النَّجِيُّ وِشَاحَهُ
وَجَاءَ سَفِيرٌ لِلصَّبَاحِ يُشَيِّعُ
أَفَاقَتْ، وَقَدْ لَاشَى لَهِيبَ شُجُونِهَا
سَمَاعُ طُيُورٍ فِي الحَدِيقَةِ تَسْجَعُ،
كَمِجْمَرَةٍ أَفْنَتْ مَدَى اللَّيْلِ نَارَهَا
فَمَا حَشْوُهَا إِلَّا رَمَادٌ مُجَمَّعُ
وَرَنَّ صَدَى الأَجْرَاسِ فِي كَبِدِ الضُّحَى

يُـهِـيـبُ بِـأَرْوَاحِ الـتُّـقَـاةِ فَـتُـسْـرِعُ
فَـقَـالَـتْ: «لَـعَـلَّ الـلـهَ يَـقْـبَـلُ تَـوْبَـتِـي
فَمَا لِيَ فِي الدُّنْيَا سِوَى اللهِ مَرْجِعُ»

٤

النَّاسُ فِي المُعْتَكَفِ المُقَدَّسِ
يُعْلُونَ للهِ بَخُورَ الأَنْفُسِ
وَللنُّفُوسِ صَوْتُهَا المَسْمُوعُ
وَأَذْرُعُ العَجَائِزِ المُرْتَجِفَهْ
كَأَنَّهَا مَسَارِجٌ مُنْعَكِفَهْ
جَفَّتْ عَلَى قِمَّتِهَا الشُّمُوعُ

* * *

وَصَلَوَاتُ الكَاهِنِ القِدِّيسِ
تُذِيبُ رُوحَ اللهِ فِي النُّفُوسِ
قَالَ بِصَوْتٍ خَافِتٍ: «أَبَانَا
أَنْزِلْ عَلَى شُعُوبِكَ الغُفْرَانَا!»
إِذَا بِغَلْوَا كَضَمِيرِ الجَانِي
تَجْمُدُ عِنْدَ لَفْظَةِ الغُفْرَانِ
وَتَخْفِضُ الرَّأْسَ إِلَى الحَضِيضِ
ذَارِفَةً مِنْ جَفْنِهَا المَرِيضِ
بَعْضَ دُمُوعٍ كَالعَفَافِ بِيضِ
وَالعَرَقُ البَارِدُ مِنْ جَبْهَتِهَا
يَرْشَحُ كَاللَّهِيبِ مِنْ مُهْجَتِهَا
أَوْ كَعُذَابِ القَلْبِ مِنْ تَوْبَتِهَا
وَكَانَ فِي إِحْدَى زَوَايَا الهَيْكَلِ

مُخْتَطَفَ الرُّوحِ شَرِيدَ المُقَلِ
ذُو النَّظَرِ المُخَدَّرِ المُشْتَعِلِ

* * *

فَبَدَرَتْ مِنْ عَيْنِهِ الْتِفَاتَهْ
إِلَى المُصَلَّى فَرَأَى فَتَاتَهْ
غَلْواءَ ذَاتَ الأَلَمِ السِّرِّيِّ
ذَاتَ الضَّمِيرِ التَّعِبِ الشَّقِيِّ
ذَاتَ الهَوَى المُدَنَّسِ النَّقِيِّ
تَقْرَأُ فِي كِتَابَهَا الصَّغِيرِ
كَأَنَّهَا تَقْرَأُ فِي ضَمِيرِ
مُعَذَّبٍ مُلْتَهِبِ السُّطُورِ
وَتَارَةً تَرْفَعُ عَيْنًا سَاهِيَهْ
إِلَى البَخُورِ المُتَلَاشِي
فِي سَمَاءِ الزَّاوِيَهْ
فَتَتَلَاشَى مِثْلَهُ أَنْفَاسُهَا
فِي خَلَجَاتٍ وَارْتِعَاشِ
مِثْلَ ارْتِعَاشَاتِ الفَرَاشِ
في الجَوِّ حِينَ تَنْتَهِي أَعْرَاسُهَا
أَوْ كَالضَّبَابِ في مَسَا الخَرِيفِ
يَنْحَلُّ في ارْتِعَاشِهِ الخَفِيفِ
فَقَالَ: «مَا تَخْشَى تُرَاهَا، مَا بِهَا
يَغْمُرُهَا طَوْرًا دُجَى اضْطِرَابِهَا،
وَتَارَةً تُعْرِضُ عَنْ كِتَابِهَا؟»
وَانْتَهَتِ الصَّلَاهْ
فِي هَيْكَلِ الإِلَهْ
فَانْصَرَفَ الجُمْهُورْ
وَبَقِيَتْ غَلْوَاءُ

وَالـــهَـــمُّ وَالـــشَّـــقَـــاءُ
فـي الـمَـعْـبَـدِ الـمَـهْـجُـورْ
كَـشَـمْـعَـةٍ لَـمَّـا تَـزَلْ مُـضَـوَّأَهْ
بَيْنَ شُمُوعِ الهَيْكَلِ المُنْطَفِئَهْ

٥

كَـانَ شَـفِـيـقٌ لَـمْ يَـزَلْ مُـخْـتَـلِـي
فـي الـجِـهَـةِ الـيُـسْـرَى مِـنَ الـهَـيْـكَـلِ
مُـفَـكِّـرًا فـي حُـبِّـهِ الـمُـقْـفَـلِ
يُـسَـائِـلُ الـقَـلْـبَ فَـلَا يَـنْـطِـقُ
وَالـقَـلْـبُ سِـرٌّ فـي الـهَـوَى يَـخْـفِـقُ
فَـمُـذْ رَأَى فُـلَّـتَـهُ الـذَّاوِيَـهْ
غَـلْـوَاءَ ذَاتَ الـكَـبِـدِ الـدَّامِـيَـهْ
بَـاقِـيَـةً تَـضْـرَعُ فـي الـزَّاوِيَـهْ
قَـالَ: «أَفِـقْ يَـا حُـبُّ مِـنْ هَـجْـعَـتِـكْ
فَـسَـيِّـدُ الآلَامِ فـي بَـيْـعَـتِـكْ
أَحَـبَّ حَـتَّـى مَـرْيَـمَ الـزَّانِـيَـهْ!»
ثُـمَّ دَنَـا مِـنْـهَـا وَفـي مُـقْـلَـتِـهْ
دَمْـعٌ يَـطُـوفُ الـحُـبُّ فـي مَـوْجَـتِـهْ
كَـحِـطْـمَـةٍ تُـقْـذَفُ مِـنْ مُـهْـجَـتِـهْ
فَـانْـتَـفَـضَـتْ غَـلْـوَاءُ مِـنْ ذُعْـرِهَـا
وَثَـارَتِ الأَنْـفَـاسُ فـي صَـدْرِهَـا
كَـأَنَّـهَـا الـبُـرْكَـانُ فـي ثَـوْرَتِـهْ
فَـقَـالَ: «عَـفْـوًا، هَـذِهِ أَدْمُـعِـي
تَـشْـفَـعُ، يَـا غَـلواءُ، بِـي فَـاشْـفَـعِـي

قَطرتُهَا مِنْ قَلْبِيَ المُوجَعِ
تَحْمِلُ في مَوْجَاتِهَا مِنْ دَمِي
حَدِيثَ حُبٍّ لَمْ يَرِدْ مِنْ فَمِ
وَلَمْ يَقَعْ مِنْ قَبْلُ في مِسْمَعِ
أَمَامَ هَذَا الهَيْكَلِ الأَطْهَرِ
أَمَامَ عَيْنِ البَائِسِ الأَكْبَرِ
أَمَام شَمْعِ المَعْبَدِ الأَصْفَرِ
وَهَذِهِ الأَشِعَّةِ الذَّائِبَهْ
مِنْ فِلْذَةِ الغَزالَةِ الشَّاحِبَهْ
عَلَى رُخَامِ المَذْبَحِ النَيِّرِ
أَمَامَ أَوْجَاعِي، أَمَامَ الأَلَمْ
أَمَامَ هَذَا الضعْفِ، هَذَا السَّقَمْ
وَهَذِهِ العَيْنِ الَّتِي لَمْ تَنَمْ
أَطْرَحُ قَلْبِي لِلْهَوَى مِجْمَرَهْ!»
فَغَمْغَمَتْ غَلْوَاءُ: «مَا أَكْفَرَهْ
هَذَا الهَوَى! يَمْضِي وَيَأْتِي النَّدَمْ»
وَحَدَّقَتْ حِينًا إِلَى المُغْرَمِ
وَقَلْبُهَا في صَدْرِهَا المُظْلِمِ
يَمْشِي مِنَ الآلَامِ في مَأْتَمِ
ثُمَّ أَمَالَتْ عَيْنَهَا السَّاهِيَهْ
عَنْ عَيْنِهِ الكَئِيبَةِ البَاكِيَهْ
وَاسْتَغْرَقَتْ في حُلُمٍ مُبْهَمِ
فَقَالَ: «لَا، لَا تُعْرِضِي فَالشَّقَا
أَرَادَ، يَا غَلْوَاءُ، أَنْ أُخْلَقَا
أَنْ أَعْرِفَ الحُبَّ وَأَنْ أَعْشَقَا
فَأَيُّ سِرٍّ في دُجَاكِ اسْتَتَرْ
تُفْشِيهِ عَيْنَاكِ لِهَذِي الصُّوَرْ

وَعَنْ فُؤَادِي لَمْ يَزَلْ مُغْلَقَا؟»
وَلَمْ يَكَدْ يَصْمُتُ حَتَّى سَجَدْ
قُدْسُ الهَوَى مَا ذَلَّ فِيهِ أَحَدْ
فَالحُبُّ، لَا كُفْرَ، إِلَهٌ صَمَدْ
كَأَنَّ فِي مُقْلَتِهَا هَيْكَلَهْ
يَرَى عَلَيْهِ سَيِّدَ الجَلْجَلَهْ
يَفْتَحُ لِلْحُبِّ جِرَاحًا جُدَدْ
وَقَالَ: «غَلْوَاءُ، هُنَا مَعْبَدِي
فِي صَدْرِكِ المُنْطَفِئ المُوقَدِ
وَعَيْنِكِ الغَرْقَى بِبَحْرِ الغَدِ»
وَصَادَفَتْ مُقْلَتُهُ المَذْبَحَا
عَلَيْهِ ذَيْلٌ مِنْ شُعَاعِ الضُّحَى
وَصُورَةَ العَذْرَا فَقَالَ: «اشْهَدِي!»
قَالَ: «اشْهَدِي، إِنَّ الهَوَى يَشْهَدُ
يَا صُورَةً لِمَرْيَمٍ تُعْبَدُ
يَا مَوْقِدًا لِلْحُبِّ لَا يَخْمَدُ»
... ...
... ...
... ...
الحُبُّ نِيرَانٌ تُنِيرُ السَّمَا
فَتُرْسِلُ النُّورَ لَنَا كُلَّمَا
حَانَ مَعَ اللهِ لَنَا مَوْعِدُ
أَشِعَّةٌ مِنْ مُقْلَةِ الخَالِقِ
تَذُوبُ فِي الأَكْبَادِ مِنْ حَالِقِ
فَتَمْزُجُ الخَالِقَ بِالعَاشِقِ
وَاللهُ مَا أَبْدَعَ قَلْبَ البَشَرْ
حَتَّى يَظَلَّ خَامِدًا كَالحَجَرْ

فَالنَّارُ في عُنْصُرِهِ الخَافِقِ
قَالَ لهَا: «قَلْبُكِ، مَا أَفْجَعَهْ!
اللهَ مَا أَقْسَاهُ! مَا أَوْجَعَهْ!
تَكَلَّمِي، أَوَدُّ أَنْ أَسْمَعَهْ
أَوَدُّ أَنْ أَحْنِي لَهُ أَضْلُعِي
قَوْسًا مِنْ الحُبِّ فيَبْقَى مَعِي
مَا بَقِيَ العُمْرُ، وَأَبْقَى مَعَهْ
أَوَدُّ أَنْ أَفْرُشَ عَيْنَيَّ لَهْ
هَذَا دَمِي أَوَدُّ أَنْ يَأْكُلَهْ
إِنَّ الهَوَى يُهَوِّنُ الجَلْجَلَهْ
لَيْسَ الهَوَى، يَا أُخْتَ رُوحِي، سِوَى
قُرْبَانَةِ الأَرْوَاحِ، لَيْسَ الهَوَى ...»
فَغَمْغَمَتْ غَلْوَا: «سِوَى مَهْزَلَهْ»
وَغَادَرَتْهُ في أَسَى مُوغِلِ
مِنْ مُشْكِلٍ يُزْجَى إِلَى مُشْكِلِ
كَمُدْلِجٍ في لَيْلِهِ الأَلْيَلِ
فَقَالَ: «هَذَا الحُبُّ مَنْ أَنْزَلَهْ؟»
فَرَنَّ في مِسْمَعِهِ: «المَهْزَلَهْ!»
وَرَجَّعَتْهَا قُبَّةُ الهَيْكَلِ!

العهد الثالث

التجلِّي

١

اجْرَحِ الـقَـلْـبَ وَاسْـقِ شِـعْـرَكَ مِـنْـهُ
فَـدَمُ الـقَـلْـبِ خَـمْـرَةُ الأَقْـلَامِ
مَصْدَرُ الصِّدْقِ في الشُّعُورِ هُوَ القَلْبُ
وَفـي الـقَـلْـبِ مَـهْـبَـطُ الإِلْـهَـامِ
وَإِذَا أَنْـتَ لَـمْ تُـعَـذَّبْ وَتَـغْـمِـسْ
قَـلَـمًـا فـي قَـرَارَةِ الآلَامِ
فَـقَـوَافِـيـكَ زُخْـرُفٌ وَبَـرِيـقٌ
كَـعِـظَـامٍ فـي مَـدْفَـنٍ مِـنْ رُخَـامِ
وَإِذَا الـقَـلـبُ لَـمْ يُـرَقَّـقْ بِـحُـبٍّ
حَـجَّـرَتْـهُ ضَـغَـائِـنُ الأَيَّـامِ
وَالـهَـوَى دُونَ أَكْـبُـدٍ لَـيْـسَ يَـحْـيَـا
فَـغِـذَاءُ الـهَـوَى مِـنَ الأَجْـسَـامِ
ضَـحِّ بِـالـقَـلْـبِ إِنْ هَـوِيـتَ فَـلَـيْـسَ
الـقَـلْـبُ إِلَّا وَلِـيـمَـةً لِـلْـغَـرَامِ
يَـا لَـهَـا فـي الـهَـوَى وَلِـيـمَـةَ قَـلْـبٍ

سَوْفَ يَبْقَى لَهَا صَدًى في الأَنَامِ
وَاشْقَ مَا شِئْتَ فَالشَّقَا مُحْرَقَاتٌ
صَعِدَتْ مِنْ مَذَابِحِ الأَرْحَامِ
رُبَّ جُرْحٍ قَدْ صَارَ يُنْبُوعَ شِعْرٍ
تَلْتَقِي عِنْدَهُ النُّفُوسُ الظَّوَامِي
وَزَفِيرٍ أَمْسَى، إِذَا قَدَّسَتْهُ الرُّوحُ،
ضَرْبًا مِنَ أَقْدَسِ الأَنْغَامِ
وَعَذَابٍ قَدْ فَاحَ مِنْهُ بَخُورٌ
خَالِدٌ فِي مَجَامِرِ الأَحْلَامِ
... ...
... ...
قَطَفَ الهَمُّ وَالأَسَى زَهَرَاتٍ
نَبَتَتْ في ضِفَافِ نَبْعِ الدُّمُوعِ
وَجَنَى البُؤْسُ بَعْضَ أَشْوَاكِ وَرْدٍ
عَطَفَتْهَا الصَّبَا عَلَى اليَنْبُوعِ
وَإِذَا بِالغَرَامِ يَضْفِرُ مِنْهَا
لِشَفِيقٍ إِكْلِيلَ قَلْبٍ وَجِيعِ
وَتَرَاءَتْ مَلَائِكٌ لِشَفِيقٍ
في ثَنَايَا غَمَامَةٍ بَيْضَاءِ
وَاكَبَتْهَا مِنَ السَّمَاءِ عَذَارَى
طَاهِرَاتٌ كَأَدْمُعِ الشُّعَرَاءِ
حَامِلَاتٌ عَلَى الصُّدُورِ حُلِيًّا
كَمَصَابِيحَ أُشْعِلَتْ في السَّمَاءِ
أَوْ عَنَاقِيدَ أَنْضَجَتْهَا شُمُوسُ الحُبِّ
في عَالَمِ الخَيَالِ الرَّفِيعِ
حَيْثُ لَا يَضْمَحِلُّ فَصْلُ الرَّبِيعِ
وَتَرَاءَتْ لَهُ سَلَائِمُ حَمْرَاءُ

تَـدَلَّـتْ أَذْيَـالُـهَـا فـي الأَثِـيـرِ
فُـرِشَـتْ كُـلُّ سُـلَّـمٍ بِـوُرُودِ
رَبَـطَـتْـهَـا شَـفَـائِـفٌ مِـنْ حَـرِيـرِ
وَعَـلَـى كُـلِّ وَرْدَةٍ قَـطَـرَاتٌ
شَـعَّ مِـنْـهَـا لَـمْ أَدِرِ أَيَّ شُـعُـورِ
فَـكَـأَنَّ الـوُرُودَ جَـامَـاتُ حُـبٍّ
أَوْ قَـوَارِيـرُ رُصِّـعَـتْ بِـدُمُـوعِ
وَطَـلَـتْـهَـا الـسَّـمَـا بِـلَـوْنِ الـنَّـجِـيـعِ
وَتَـرَاءَتْ لَـهُ جُـمُـوعُ الـعَـذَارَى
فَـوْقَ تِـلْـكَ الـسَّـلَالِـمِ الـعُـلْـوِيَّـهْ
عَـازِفَـاتٍ لَـهُ مَـزَامِـيـرَ دَاوُدَ
بِـكِـنَّـارَةِ الـهَـوَى الـقُـدْسِـيَّـهْ:
«كُلَّ لَيْلٍ، يَا رَبِّ، أَغْمُرُ بِالدَّمْعِ
سَـرِيـرِي مِـنْ أَجْـلِ تِـلْـكَ الـخَـطِـيَّـهْ
وَيُـمِـيـعُ الـفِـرَاشَ مَـاءُ عُـيُـونِـي!»
كُـنَّ يَـعْـزِفْـنَ وَالـصَّـدَى فـي الـرَّقِـيـعِ
كَـانَ يَـرْقَـى إِلَـى الـعـلا بِـخُـشُـوعِ
«فـي قُـلُـوبِ الـوَرَى فَـسَـادٌ وَلَا صِـدْقَ
بِـأَفْـوَاهِـهِـمْ، فَـفِـيـهَـا شُـرُورُ
وَحُـلُـوقُ الـوَرَى قُـبُـورٌ! ...» وَلَـمَّـا
انْـقَـطَـعَ الـلَّـحْـنُ وَانْـتَـهَـى الـمَـزْمُـورُ
سَـمِـعَ الـعَـاشِـقُ الـمُـعَـذَّبُ صَـوْتًـا
رَجَّـعَـتْ فـي الـعـلَا صَـدَاهُ الـخُـدُورُ:
«طَـهَّـرَتْـكَ الآلامُ مِـنْ كُـلِّ رِجْـسٍ
وَالـهَـوَى فـي فُـؤَادِكَ الـمَـوْجُـوعِ
وَلَـيَـالِـيـكَ فـي ظَـمَـأٍ وَجُـوعِ
قَـدَّسَـتْ شُـعْـلَـةُ الـسَّـمَـا فَـمَـكَ الإِنْـسِـيَّ

فَـاحْـمَـدْ نَـارَ الـسَّـمَـاءِ وَمَـجِّـدْ
وَهَـوَاكَ الـشَّـقِـيُّ قَـدَّسَـهُ الـدَّمْـعُ
فَـغَـمِّـسْـهُ بِـالـدِّمَـاءِ وَخَـلِّـدْ
فَـجَّـرَ الـحُـبُّ مِـنْ فُـؤَادِكَ شِـعْـرًا
أَيُّـهَـا الـبُـلْـبُـلُ الـصَّـمُـوتُ فَـأَنْـشِـدْ!»
... ...
... ...
أَيُّـهَـا الـفَـاتِـحُـونَ فِـي الأَرْضِ طُـرًّا
أَيُّـهَـا الـشَّـارِبُـونَ كَـأْسَ الـدِّمَـاءِ
أَيُّـهَـا الـشَّـاخِـصُـونَ لِـلْـكَـوْنِ سُـخْـرا
مِـنْ خِـلَالِ الـقَـذَائِـفِ الـصَّـمَّـاءِ
وَدِمَـاءِ الـضِّـعَـافِ وَالأَبْـرِيَـاءِ
قَدْ عَرَفْتُم مَجْدَ العُرُوشِ العَظِيمَهْ
وَطَـلَـيْـتُـمْ تِـيـجَـانَـكُـمْ بِـالـلُّـبَـانِ
وَعَـشِـقْـتُـمْ مِـنَ الـجَـمَـالِ نُـجُـومَـهْ
وَارْتَـدَيْـتُـمْ مَـطَـارِفَ الأُرْجُـوَانِ
وَلَـعِـبْـتُـمْ بِـالـدَّهْـرِ وَالـتِّـيـجَـانِ
ذُقْتُمُ الـحُـبَّ فِـي مَـجَـالِـي جَـمَـالِـهْ
بَـيْـنَ رَقْـصِ الأَجْـسَـادِ وَالأَوْتَـارِ
وَاغْـتَـصَـبْـتُـمْ حَـتَّـى حَـرِيـمَ خَـيَـالِـهْ
مُـذْ شَـبِـعْـتُـمْ مِـنْ شَـهْـوَةِ الأَقْـذَارِ
شَـهْـوَةِ الـطِّـينِ فِـي خُـدُورِ الـسَّـرَارِي
وَافْـتَـتَـحْـتُـمْ مُـلْـكَ الـثَّـرَى بِـالـصَّـوَارِمْ
وَسَـكِـرْتُـمْ بِـخَـمْـرَةِ الانْـتِـصَـارِ
وَشَـرِبْـتُـمْ دَمَ الـوَرَى بِـالـجَـمَـاجِـمْ
وَاخْـتَـصَـرْتُـمْ صَـفَـائِـحَ الأَعْـمَـارِ
بِـيَـرَاعٍ مِـدَادُهُ مِـنْ نَـارِ

ذُقْتُمُ الرَّاحَ في اخْتِلَافِ كُئُوسِهْ
وَتَفَلْتُمْ عَلَى يَدِ العَصَّارِ
مَا تَرَكْتُمْ لِلشَّعْبِ غَيْرَ رُمُوسِهْ
وَظَمَاءِ الأَحْشَاءِ لِلْخَمَّارِ
وَسُقَاطِ الطِّلَى لِبَعْضِ الجَوَارِي
وَعَرَفْتُمْ في المَجْدِ كُلَّ الأَمَاكِنْ
وَقُصَارَى لَذَّاتِهِ الحَمْرَاءِ
وَعَرَفْتُمْ حَتَّى الغُيُوبَ وَلَكِنْ
مَا عَرَفْتُمْ في المَجْدِ نُورَ السَّمَاءِ
مِنْحَةَ الآلِهَاتِ لِلشُّعَرَاءِ!

٢

فِي لَيْلَةٍ حَالِكَةٍ كَالهُمُومِ
هَابِطَةِ الجَوِّ بِثِقْلِ الغُيُومِ
كَأَنَّهَا قَدْ حُبِلَتْ بِالرُّجُومِ
كَانَ الفَتَى الشَّاعِرُ في مِخْدَعِهْ
يَبْكِي فَيَجْرِي القَلْبُ في أَدْمُعِهْ
شِعْرًا يَعِيهِ الحُزْنُ في مَسْمَعِهْ
وَكَانَتِ الشَّمْعَةُ في حُجْرَتِهْ
تَنْزَعُ كَالمَيِّتِ في سَاعَتِهْ
أَكُلُّ شَيْءٍ مِثْلُهَا لَا يَدُومْ؟
وَكَانَتِ الوَحْدَةُ كَالمَدْفَنِ
مُوحِشَةً في ذَلِكَ المَسْكَنِ
وَقَدْ سَطَا النَّوْمُ عَلَى الأَعْيُنِ
وَاسْتَيْقَظَ الشَّاعِرُ مِنْ سَكْرَتِهْ

وَحَـوَّلَ الـعَـيْـنَ إِلَـى شَـمْـعَـتِـهْ
أَنِـيـسَـةِ الأَشْـجَـانِ فـي وَحْـدَتِـهْ
وَبَـعْـدَ أَنْ مَـرَّتْ عَـلَـيْـهِ ثَـوَانْ
كَـأَنَّـهَـا مِـنْ دَامِـيَـاتِ الـزَّمَـانْ
قَـالَ بِـصَـوْتٍ رَاعِـشٍ مُـحْـزِنٍ:
«يَـا شَـمْـعَـتِـي، مَـاذَا وَرَاءَ الـنِّـزَاعْ؟
مَـا هَـذِهِ الـقَـطْـرَةُ تَـحْـتَ الـشُّـعَـاعْ
وَلِـمْ أَرَى فـيـهَـا اصْـفِـرَارَ الـوَدَاعْ؟
فـي دَمْـعِـكِ الـشَّـاحِـبِ نُـورٌ يَـذُوبْ
مَـاذَا تَـقُـولِـيـنَ بِـهِ لِـلْـقُـلُـوبْ؟
لِـمْ يَـغْـمُـرُ الـشُّـعْـلَـةَ هَـذَا الـشُّـحُـوبْ؟
أَيَـنْـتَـهِـي الـحُـبُّ كَـمَـا تَـنْـتَـهِـيـنْ
يَـا شَـمْـعَـتِـي، يَـا مَـثَـلَ الـعَـاشِـقِـيـنْ
لَـذَّاتُـهُ تَـأْتِـي وَتَـمْـضِـي سِـرَاعْ؟»

* * *

وَإِذْ تَـلَاشَـى نَـفَـسُ الـشَّـمْـعَـةِ
مِـثْـلَ تَـلَاشِـي الـرُّوحِ فـي الـمَـيِّـتِ
قَـالَ الـفَـتَـى الـشَّـاعِـرُ لِـلـظُّـلْـمَـةِ:
«يَـا مَـدْفَـنَ الأَنْـوَارِ مَـاذَا وَرَاءْ
هَـذَا الـدُّجَـى الـحَـالِـكِ، هَـذَا الـغِـطَـاءْ
مَـاذَا وَرَاءَ الـلَّـيْـلِ، هَـلْ مِـنْ ضِـيَـاءْ؟
لِـمْ يَـنْـقَـضِـي الـلَّـيْـلُ وَيَـأْتِـي الـسَّـحَـرْ؟
مَـهْـزَلَـةٌ مِـنْ مَـهْـزَلَاتِ الـقَـدَرْ!»
... ...
... ...
... ...
... ...

فـي ذَلِكَ اللَّيْلِ العَصِيبِ الطَّوِيلْ
تـذَكَّـرَ الـشَّـاعِـرُ عَـهْـدًا جَـمِـيـلْ
لَـمْ يَـرَ مِـنْـهُ غَـيْـرَ شَـطْـرٍ ضَـئِـيـلْ
إِذْ كَـانَ فـي مَـيْـعَـتِـهِ الـنَّـاعِـمَـهْ
يَـحْـلُـمُ بِـالـسَّـعَـادَةِ الـدَّائِـمَـهْ ...
خَـابَ رَجَـاءُ الأَنْـفُـسِ الـحَـالِـمَـهْ!
يَـا خَـافِـقًـا، أَلـلـهَ مَـا أَوْجَـعَـكْ!
مَـا أَبْـخَـلَ الـدُّنْـيَـا وَمَـا أَطْـمَـعَـكْ!
تُـعْـطِـي وَلَا تُـمْـنَـحُ حَـتَّـى الـقَـلِـيـلْ

* * *

فـي ذَلِـكَ الـلَّـيْـلِ ... وَمَـا أَظْـلَـمَـهْ!
ذِكْـرُ الـصِّـبَـا فـي الأَكْـبُـدِ الـمُـغْـرَمَـهْ
وَنُـورُهُ فـي الـلَّـيْـلَـةِ الـمُـظْـلِـمَـهْ
تَـذَكَّـرَ الـشَّـاعِـرُ فَـجْـرَ الـشَّـبَـابْ
وَذَلِـكَ الـوَادِي وَتِـلْـكَ الـهِـضَـابْ
وَعَـوْدَةَ الـقُـطْـعَـانِ عِـنْـدَ الـغِـيَـابْ
وَوَالِـدًا مَـرَّ مُـرُورَ الـشَّـبَـحْ
كَـأَنَّـهُ يـوْمُ صَـفَـاءٍ سَـنَـحْ
فَـقَـالَ: «يَـا قَـلْـبِـي، إِلَـى الـجَـلْـجَـلَـهْ
حَـمَـلْـتَ آمَـالَ الـصِّـبَـا الـمُـثْـقَـلَـهْ
وَلَـمْ تَـدَعْ مِـنْـهَـا سِـوَى الأَخْـيِـلَـهْ
لِأَجْـلِ غَـلْـوَاءَ وَأَجْـلِ الـعَـذَابْ
كَـتَـبْـتِ لِـي فـي الـحُـبِّ هَـذَا الـكِـتَـابْ
يَـا شُـعْـلَـةً مَـحْـجُـوبَـةً بِـالـهِـضَـابْ
يَـــا قَـــلْـــبِ! ...»

* * *

إِذَا بِـهِ، فـي الـحُـجْـرَةِ الـمُـظْـلِـمَـهْ،

يُصْغِي إِلَى حَشْرَجَةٍ مُؤْلِمَهْ
بَيْنَ خُفُوقِ القَلْبِ وَالتَمْتَمَهْ
وَرَاءَ في قَلْبِ الدُّجَى وَالِدَهْ
يَغِيمُ في شَفَّافَةٍ صَاعِدَهْ
مِنْ صُلْبِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ البَارِدَهْ
كَأَنَّهَا، وَهْيَ تَشُقُّ القَتَامْ،
لَوْحَةُ فَجْرٍ في إِطَارِ الظَّلَامْ
أَوْ وَمْضَةٌ مِنْ شُعْلَةٍ مُبْهَمَهْ

* * *

قُدِّسْتِ يَا غَيْبَوبَةَ الشَّاعِرِ
رُؤْيَا كَمَرِّ الحُلُمِ الطَّاهِرِ
أَوْ كَالهَوَى في عَهْدِهِ السَّاحِرِ
قُدِّسْتِ في أَحْلَامِكِ الشَّاحِبَهْ
قُدِّسْتِ في آلَامِكِ الذَّائِبَهْ
في رُوحِكِ الحَاضِرَةِ الغَائِبَهْ
في كُلِّ مَا تَحْمِلُ مِنْكِ العُيُونْ
في سَوْرَةِ الحُبِّ وَسُكْرِ الجُنُونْ
وَفي اخْتِلَاجِ الخَافِقِ الحَائِرِ
في جَوْفِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ البَارِدَهْ
كَأَنَّهَا ضَمَائِرٌ جَاحِدَهْ
تَخْطُرُ فيهَا فِكْرَةٌ حَاقِدَهْ
وَلِلرِّيَاحِ الهُوجِ بَيْنَ الوَرَقْ
عَزْفٌ كَأَنَّ الجِنَّ فيه زَعَقْ
فَمَزَّقَ الأَرْوَاحَ ثُمَّ انْطَلَقْ
تَحَرَّكَ اللَّيْلُ وَقَالَ الخَيَالْ:
«مَنْ لَيْسَ يَبْكِي في اللَّيَالِي الطوَالْ
وَلَا يُدَمِّي المُقْلَةَ السَّاهِدَهْ

مَنْ لَمْ يَذُقْ في الخُبْزِ طَعْمَ الأَلَمْ
وَلَمْ يُنَكِّرْ وَجْنَتَيْهِ السَّقَمْ
وَتَسْلُخِ الأَوْجَاعُ مِنْهُ حِطَمْ
مَنْ لَا يَرَى في الشَّمْسِ طَيْفَ الغُرُوبْ
وَيَسْمَعُ اللَّيْلَ اخْتِلَاجَ القُلُوبْ
وَيَرْصُدُ الشَّمْعَةَ حَتَّى تَذُوبْ
مَنْ لَمْ يُغَمِّسْ في هَوَاهُ دَمَهْ
مَنْ يَمْنَعِ الأَهْوَالَ أَنْ تُطْعِمَهْ
وَلَا يَرَى في كُلِّ جُرْحٍ حِكَمْ
مَنْ لَيْسَ يَرْقَى ذُرْوَةَ الجَلْجَلَهْ
وَلَمْ يُسَمِّرْ في الهَوَى أُنْمُلَهْ
وَيُرْفَعِ العَلْقَمُ وَالخَلُّ لَهْ
مَنْ يَصْرِفِ العُمْرَ عَلَى المَخْمَلِ
وَلَا يَذُوقُ البُؤْسَ في الأَوَّلِ!
وَلَا الأَسَى في مِخْدَعٍ مُقْفَلِ
لَنْ يَعْرِفَ العُمْرَ شُعَاعَ الإِلَهْ
وَلَنْ يَرَى آمَالَهُ في رُؤَاهْ
بَلْ عَالَمًا يَخْبِطُ في مَهْزَلَهْ!»

* * *

وَانْسَحَبَ الطَّيْفُ إِلَى ظُلْمَتِهْ
يَجُرُّ بِالأَذْيَالِ مِنْ وَمْضَتِهْ
عَيْنَ الفَتَى الغَرْقَى بِغَيْبُوبَتِهْ
حَتَّى إِذَا سَادَ السُّكُونُ المُخِيفْ،
وَكَانَ في الخَارِجِ صَوْتُ الحَفِيفْ
يَعْلُو شَدِيدًا مِنْ غُصُونِ الخَرِيفْ،
أَفَاقَ مِنْ سَكْرَتِهِ الشَّاعِرُ
وَقَالَ: «هَلْ يُرْجَى لَهُ آخِرُ

هَذَا الدُّجَى الغَارِقُ في ثَوْرَتِهْ؟

* * *

قَدْ يَحْمِلُ الفَجْرُ عَزَاءً إِلَي
إِنْ حَمَلَ النُّورَ إِلَى مُقْلَتَي
فَاللَّيْلُ قَدْ أَخْنَى عَلَى كَاهِلَي
يُخِيفُنِي اللَّيْلُ بِأَرْوَاحِهِ
ثَائِرَةً كَالهَوْلِ في سَاحِهِ
وَبِالرُّؤَى مِنْ بِيضِ أَشْبَاحِهِ
لا أَنْشُدُ البُؤْسَ وَلَا أَرْغَبُ
في حَمْلِ حُبٍّ قَوْمُهُ عُذِّبُوا
فَالحُبُّ في الآلَامِ ثِقْلٌ عَلَي
يُخِيفُنِي في مِخْدَعِي البَارِدِ
خَيَالُ حُبٍّ مُبْهَمٍ جَامِدِ
أَبْكَمَ كَالأَرْمَاسِ، يَا وَالِدِي
يُخِيفُنِي اللَّيْلُ فَأَيْنَ السَّحَرْ
يَطْرُدُ مِنْ عَيْنَيَّ هَذِي الصُّوَرْ
وَمَا عَلَيْهَا مِنْ شَقَاءِ البَشَرْ؟»
... ...
... ...
كَانَ الدُّجَى لَمَّا يَزَلْ ثَائِرَا
وَالرِّيحُ تُدْمِي الأُفُقَ المَاطِرَا
بِالبَرْقِ، جُرْحِ المَلَإِ الخَالِدِ
كَأَنَّ لِلَّيْلِ هَوًى حَائِرا
ذَاقَ الأَسَى فَلَمْ يَزَلْ سَاهِرا

العهد الرابع

الغفران

١

مَضَتْ أَشْهُرٌ نُذِرَتْ لِلْمَطَرْ
وَأَظْلَمَ فيها المَسَا وَالسَّحَرْ
وَأَقْبَلَ نَوَّارُ عُرْسُ الطَّبِيعَةِ
يَضْحَكُ في وَرَقَاتِ الشَّجَرْ
يُدَغْدِغُ بِالطَّلِّ عُشْبَ الحُقُولِ
وَيَطْبَعُ أَلْوَانَهُ في الزَّهَرْ
وَيَبْنِي عَلَى الهَضَبَاتِ مَتَاحِفَ
تَسْخَرُ مِنْ هَذَيَانِ البَشَرْ
كَأَنَّ عَبَاقِرَةَ الجِنِّ فيها
سَكَنَّ وَعَلَّقْنَ تِلْكَ الصُّوَرْ
فَخَفَّ الشَّبَابُ نَدِيَّ الحَيَاةِ
يَسْتَقْبِلُ الحُلُمَ المُنْتَظَرْ
عَلَى ثَغْرِهِ بَسَمَاتُ الرَّبِيعِ
وَفي قَلْبِهِ بَسَمَاتٌ أُخَرْ
... ...

... ...

وَفي يَوْمِ عِيدٍ نَقِيِّ السَّمَاءِ
كَأَنَّ السَّمَا صَفْحَةٌ مِنْ سُوَرْ
أَطَلَّ شَفِيقٌ عَلَى الهَضَبَاتِ
فَرَاءَ الشَّبَابَ عَلَيْهَا انْتَشَرْ
وَأَبْصَرَ غَلْوَاءَ بَيْنَ الزُّهُورِ
كَحَوَّاءَ بَيْنَ شَهِيِّ الثَّمَرْ
تُسَرِّحُ في عَدْنِهَا نَظَرَاتٍ
عَرَفْنَ أَزَاهِيرَ خَيْرٍ وَشَر
وَقَدْ لَبِسَتْ ثَوْبَهَا الزَّنْبَقِي
عَلَيْهِ نَسِيجٌ بِلَوْنِ الخُضَرْ
وَأَلْقَتْ عَلَى العُشْبِ جِسْمًا هَزِيلًا
كَغُصْنٍ مِنْ اليَاسَمِينِ انْكَسَرْ
فَخَفَّ إِلَيْهَا وفيه عَذَابٌ
بَدَا مِنْهُ في مُقْلَتَيْهِ أَثَرْ
وَقَالَ: «لَقَدْ خَلَعَ الحَقْلُ عَنْهُ
رِدَاءَ الشِّتَاءِ وَغَطَّى الحَجَرْ
وَأَلْقَى عَلَيْهِ الرَّبِيعُ وِشَاحًا
جَمَالُ الطَّبِيعَةِ فيهِ انْحَصَرْ
فَهَلَّا خَلَعْتِ رِدَاءَ اللَّيَالِي
وَأَلْبَسْتِ رُوحَكِ ثَوْبَ البُكَرْ
وَهَلَّا تَشَبَّهْتِ بِاليَاسَمِينِ
فَمَا كَادَ يُحْجَبُ حَتَّى ظَهَرْ
لَقَدْ غَسَلَتْ بَسَمَاتُ الزُّهُورِ
ذُنُوبَ الشِّتَاءِ الكَفِيفِ البَصَرْ
وَعَادَ العَفَافُ إِلَى الهَضَبَاتِ
فَفي كُلِّ غَرْسٍ فُؤَادٌ غَفَرْ»

فَـقـالَـتْ: «أُحَـاوِلُ أَنْ أَتَنَاسَـى
زَمَـانًـا مَـضَـى وَخَـيَـالًا عَـبَـرْ!»
فَقَالَ: «وَمَاذَا يُمَثِّلُ هَذَا الخَيَالُ؟»
فَـقَـالَـتْ: «غَـرَامًـا عَـثَـرْ»
فَقَالَ وَقَدْ جَحَظَتْ مُقْلَتَاهُ:
«وَهَذَا؟» فَقَالَتْ: «حَبِيبًا غَدَرْ»
وَهـذا الـحَـبِـيـبُ؟ غَـفَـرْتُ لَـهُ
وَيَـعْـفُـو إِلَـهُـكَ عَـمَّـا بَـدَرْ
غَفَرْتُ كَمَا غَفَرَتْ في الرَّبِيعِ
زُهُـورُ الـرُّبَـى لِـشِـتَـاءٍ كَـفَـرْ
وَلَـكِـنَّ بِـي نَـدَمًـا كَـالـلَّـهِـيـبِ
يُـرِيـنِـي الـحَـيَـاةَ خِـلَالَ الـشَّـرَرْ
وَكَانَ النَّسِيمُ يَهُزُّ الغُصُونَ
فَتَنْشُرُ في الجَوِّ عِطْرَ الزُّهُورْ
كَأَنَّ العُطورَ خَطَايَا عَذَارَى
حَلَمْنَ بِأَثْمَارِهَا في الخُدُورْ
وَلَـمَّـا أَفَـقْـنَ اعْـتَـرَفْـنَ بِـهَـا
وَقَدْ هَزَّهُنَّ الضَّمِيرُ الطَّهُورْ
وَكَانَ المَسَاءُ عَلَى الهَضَبَاتِ
يَـنْـفِـثُ أَشْـبَـاحَـهُ فـي فُـتُـورْ
وَشَمْسُ المَغِيبِ تُعِيرُ الظِّلَالَ
أَلْوَانَهَا في مَطَاوِي الصُّخُورْ
فَـقَـالَ شَـفِـيـقٌ، وَفِـي قَـلْـبِـهِ
رَجَـاءٌ يَـمُـوتُ وَحُـبٌّ يَـثُـورْ:
«عَشِقْتُكِ، يَا غَلْوَ، عِشْقًا نَمَا
شَقِيَّ الرُّؤَى في شَوَاطِئِ صُورْ
وَكُـنْـتِ مِـنَ الـدَّاءِ فـي نَـشْـوَةٍ

تُرِيكِ الحَيَاةَ ظَلَامًا وَنُورْ
جَهِلْتِ الهَوَى فَنَكَّرْتِ الرَّبِيعَ
وَقَدْ تَنْكُرِينَ نُمُوَّ البُذُورْ
وَمَنْ لَمْ يُقَدَّرْ لَهُ أَنْ يَشُمَّ
يَنْكُرُ حَتَّى أَرِيجَ العُطُورْ»
فَقَالَتْ: «صَدَقْتَ وَلَكِنَّنِي
أُحِسُّ بِقَلْبِي جَفَافَ الجُذُورْ
فَأَنْتَ تَرَى في الرَّبِيعِ الجَمَالَ
وَأُبْصِرُ أَزْهَارَهُ كَالبُثُورْ
وَتُبْصِرُ في الزَّهْرِ لَوْنَ الحَيَاةِ
وَأُبْصِرُ في الزَّهْرِ لَوْنَ القُبُورْ»

٢

... ...
... ...
... ...
... ...
وَأَهْوَى عَلَى صَدْرِهَا بَاكِيًا
وَأَهْوَتْ عَلَى رَأْسِهِ بَاكِيَهْ
وَمَا هِيَ إِلَّا دَقَايِقُ حَتَّى
تَلَاشَتْ رُؤَى نَفْسِهَا الدَّامِيَهْ
فَأَدْنَتْ إِلَى ثَغْرِهِ ثَغْرَهَا
عَلَى مَشْهَدٍ مِنْ تُقَى الرَّابِيَهْ
عَلَى مَشْهَدٍ مِنْ نَقَاءِ الزُّهُورِ
العَذَارَى وَمِنْ عِفَّةِ السَّاقِيَهْ

* * *

وَإِذْ صَعِدَ البَدْرُ خَلْفَ الجِبَالِ
وَذَابَ عَلَى الرَّبْوَةِ العَالِيَهْ
وَهَوَّمَتِ الطَّيْرُ بَيْنَ الغُصُونِ
لِتَحْلُمَ أَحْلَامَهَا الصَّافِيَهْ
وَلَمْ يَبْقَ يُسْمَعُ في الحَقْلِ إِلَّا
تَنَهَّدُ شَبَّابَةِ الرَّاعِيَهْ
أَفَاقَ الحَبِيبَانِ مِنْ سَكْرَةِ الدُّمُوعِ
إِلَى سَكْرَةٍ ثَانِيَهْ
وَظَلَّا مِنَ السُّكْرِ في نَزَوَاتٍ
تُطَهِّرُهَا عِفَّةٌ بَاقِيَهْ
إِلَى أَنْ دَنَا مَوْعِدٌ لِلْفِرَاقِ
وَاصْفَرَّتِ الأَنْجُمُ السَّاهِيَهْ
كَأَنَّ النُّجُومَ الضَّئِيلَةَ في الأُفْقِ
رَشْحُ خُمُورٍ عَلَى خَابِيَهْ
كَأَنَّ النُّجُومَ زَفِيرُ خَطَايَا
تُصَعِّدُهُ لَيْلَةٌ زَانِيَهْ

٣

«أَشِعَّةٌ مِنْ مُقْلَتَيْكَ مُلْهِبَهْ
يَا أَلَمِي، تَجْعَلُ نَفْسِي طَرِبَهْ
أَشْرِقْ عَلَى قَلْبِي بَهِيًّا نَيِّرا
فَيُورِقَ الشَّوْكُ بِهِ وَيُزْهِرا
يَا هَيْكَلًا كُهَّانُهُ القُلُوبُ
بَخُورُهُ الأَدْمُعُ وَالشُّحُوبُ

أَسْمَعُ أَجْرَاسَكَ مِنْ بَعِيدِ
فَهِيَ تُنَادِينِي إِلَى السُّجُودِ!»
وَدَقَّ نِصْفُ اللَّيْلِ في السُّكُونِ
فَاخْتَلَجَ الشَّاعِرُ كَالظُّنُونِ
وَقَالَ: «إِنَّ تَعَبَ الضَّمِيرِ
يَصْعَدُ مِنْ مَجَاهِلِ القُبُورِ
يا لَيْلُ، يَا مَسَارِبَ الفَوَاجِعِ
يَا قِرَبَ الدِّمَاءِ وَالمَدَامِعِ
كَمْ مِنْ خَلِيٍّ فِيكَ يَسْتَرِيحُ!
وَكَمْ شَقِيٍّ بَائِسٍ يَنُوحُ!
ارْقُدْ قَرِيرَ العَيْنِ يَا خِلِيُّ
وَأَنْتَ فَاشْقَ أَيُّهَا الشَّقِيُّ
فَاللَّيْلُ مِلْكُ المُتْرَفِ السَّعِيدِ
وَمِلْكُ كُلِّ تَعِسٍ شَرِيدِ!»
... ...
... ...
... ...
... ...
غَلواءُ، يَا نِبْرَاسَ قَلْبِي البَائِسِ
يَا أَمَلًا في ظُلُمَاتِ اليَائِسِ
يَا مَرْهَمًا لِقَلْبِيَ المَوْجُوعِ
يَا مَلَكًا يَطُوفُ في دُمُوعِي
أُحِبُّ فِيكِ صُورَةً عَذْرَاءَ
وَإِنْ تَكُنْ أَصْبَاغُهَا شَوْهَاءَ
يَا صُورَةً تَجْرِي بِهَا السَّعَادَهْ
الحُبُّ فِيهَا دُونَهُ العِبَادَهْ
يَا أَرَجَ المُرُوجِ وَالآكَامِ

يَـا وَتَـرًا أَسْـمَـعَـنِـي أَنْـغَـامِـي
مَـجَّـدْتُ آلَامَـكِ فـي الـزُّهُـورِ
في وَهَجِ الأَنْوَارِ، في الطُّيُورِ
في بَسَمَاتِ الصُّبْحِ، في الأَصَائِلِ
في القَمْحِ، في تَمَوُّجِ السَّنَابِلِ
فـي أَدْمُـعِ الأَيِّـمِ وَالـيَـتِـيـمِ
في صَرْخَةِ البَرِيءِ وَالمَظْلُومِ
يَـا زَهْـرَةً تَـائِـبَـةً مُـقَـدَّسَـهْ
يَا خُبْزَ قُرْبَانَةِ نَفْسِي التَّعِسَهْ
أَحْـمَـدُكِ الـيَـوْمَ كَـأَمْـسِ وَغَـدَا
وَكُـلَّـمَـا غَـابَ الـنَّـهَـارُ وَبَـدَا
وَكُـلَّـمَـا بَـلَّـلْـتُ بِـالـدُّمُـوعِ
شِعْرًا شَقِيًّا قُدَّ مِنْ ضُلُوعِي!

* * *

... وَقَدْ أَحَسَّتْ فَتْرَةً بِرُوحِهَا
تَـطَّـرِحُ الأَوْهَـامَ مِـنْ جُـرُوحِـهَـا
وَرَفَـعَـتْ إِلَـيْـهِ عَـيْـنًـا ذَائِـبَـهْ
كَـأَنَّـهَـا صُـورَةُ نَـفْـسٍ تَـائِـبَـهْ
لـكِـنَّـهَـا عَـادَتْ إِلَـى جُـنُـونِـهَـا
وَثَـارَتْ الـنِّـيـرَانُ فـي عُـيُـونِـهَـا
وَكَـانَ قَـدْ أَوْشَـكَ أَنْ يُـقَـبِّـلَا
جَبِينَهَا المُضْطَرِبَ المُشْتَعِلَا
حِينَ اسْتَحَالَتْ جَمْرَةً مُلْتَهِبَهْ
تَرَاجَعَتْ عَنْهُ خُطًى مُضْطَرِبَهْ
وَبَـعْـدَ فِـكْـرٍ قَـالَـتِ: «الـحَـيَـاةُ
عَـقَـارِبٌ مِـنْ جَسَـدِي تَـقْـتَـاتُ
دَعْـنِـي، فَـلَا أَبْـرَحُ يَـا حَـبِـيـبِـي

أَعِيشُ في مَاضِيَّ، في ذُنُوبِي
في حَمْأَةِ الضَّمِيرِ، في أَوْجَاعِي
فـي بُـؤْرَةِ الـدِّيـدَانِ وَالأَفَـاعِـي
أَيَسْتَطِيعُ الطِّيبُ فِي القَارُورَهْ
أَنْ يَغْسِلَ الأَوْسَاخَ في القَاذُورَهْ
دَعْنِي، وَخَلِّ نَفْسَكَ العَذْرَاءَ
عَـذْرَاءَ لَا تَـرْجِـسُ فـي غَـلْـوَاءَ
وَاسْتَرْجِعِ القُبْلَاتِ مِنْ خَدَّيَّا
مَـغْـفِـرَةٌ ثَـقِـيـلَـةٌ عَـلَـيَّـا!»
فَـقَـالَ: «إِنَّ دَمْـعَـةً تَـطَـهَّـرَتْ
تَكْفِي لِغَسْلِ النَّفْسِ مَهْمَا قَذِرَتْ
فَـأَدْمُـعُ الـتَّـوْبَـةِ وَالـغُـفْـرَانِ
أَقْدَسُ، يَا غَلْوَاءَ، مِنْ القُرْبَانِ
فَهْيَ خَمِيرُ الأَلَمِ المَعْجُونِ
وَفِلْذَةُ القُلُوبِ فِي العُيُونِ
وَسُبْحَةُ النُّفُوسِ في العَذَابِ
تُجْمَعُ في سِلْكٍ مِنَ الأَهْدَابِ
وَهْيَ عَصِيرٌ مِنْ لُبَانٍ طَاهِرِ
تَعْقُدُهُ الآلَامُ فـي المَحَاجِرِ
وَلُؤْلُؤٌ في قَعْرِ بَحْرٍ خَاطِي
يَقْذِفُهُ المَوْجُ إِلَى الشَّوَاطِي»

* * *

مَـرَّتْ ثَـوَانٍ كُـلُّـهَـا أَحْـلَامُ
لَـمْ يَـتَـخَـلَّلْ سُـكْـرَهَـا كَـلَامُ
كَـانَ بِـهَـا الاثْـنَـانِ يُـصْـغِـيَـانِ
إِلَـى نِـزَاعِ الأَلَـمِ الـسَّـكْـرَانِ
إِذَا بِـهِ يَـقُـولُ: «يَـا غَـلْـوَاءُ

هَـذَا الـشَّـقَـا تَـبَـارَكَ الـشَّـقَـاءُ
هَذَا الشَّقَا، يَا غَلْوَ، يَا حَبِيبَتِي
يَا أُخْتِ، يَا عَرُوسِ، يَا رَفِيقَتِي